# النص القرآني في الدراسات الإعجازية العربية القديمة

**د/ ملفوف صلاح الدّين**
**جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة**

شكل النص القرآني منذ نزوله قيمة جمالية فريدة من نوعها عند المتلقين، خاصة وأنه تحدى البشر قاطبة في أن يأتوا بمثله لكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، وقد جاء هذا النص مشبعا بالقيم الحاملة لأبعاد دينية عقائدية وأبعاد جمالية لغوية تؤكد إعجازه الذي فاجأ العرب، لأنه نزل بلسانهم وزاد عليه بمسحة جديدة اخترقت هذه اللغة ولم يتبينوا أسرارها وهم الفطاحلة والجهابذة. وقد حمل النص القرآني جوامع الكلم فافتتن الناس به حين تحداهم وانتصر عليهم عقيدة وتركيبا.

تسعى هذه الورقة البحثية ـ في مقام أول ـ إلى تسليط الضوء على اهتمام الدارسين العرب قديما بالقرآن الكريم وبيان أوجه إعجازه، ووضعهم لذلك دراسات ومؤلفات تكشف عن نظرتهم للموضوع، والتي وصلت في أحايين كثيرة حد التباين لتفسير الإعجاز الذي ارتبط ـ ولا زال ـ بالتحدي والمعارضة، فجاءت هذه القراءات تثمينا للنص القرآني. وفي مقام آخر الوقوف على تلك الآليات والأدوات الإجرائية التي قرأ بها الإعجازيون الأوائل النص القرآني الذي مثل في بداية ظهوره خروجا عن المألوف، كما كان في مرات غير قليلة انزياحا عن اللغة المتعارف عليها على مستوى التركيب والتوزيع.

وإيمانا منا بصعوبة ـ إن لم نقل استحالة ـ الإلمام بكل الدراسات الإعجازية القديمة التي تناولت النص القرآني بالتحليل والدراسة في ورقة بحثية واحدة، اخترنا دراسات القرون الهجرية الخمسة الأولى، لأنها تمثل القاعدة الأساسية للدراسات الإعجازية التي جاءت بعدها كما أسست لقراءة النص القرآني قراءة تكشف عن سر الإعجاز فيه بتميز، وامتلكت جرأة الطرح وجرأة المعالجة وجرأة الاستنتاج، فكانت بذلك مرحلة تأسيسية بالنسبة للدراسات النقدية العربية القديمة. وقد أوقفنا هذه الدراسة عند تجربة الزمخشري لاعتقادنا أن الدرس الإعجازي بعده أخذ وجهة أخرى، تحتاج وقفة أو وقفات أخرى، مستعملة أدوات أخرى في المعالجة قد تختلف عن الدراسات السابقة.

قمين بنا ـ قبل الحديث عن الإعجاز والدراسات التي أقيمت حوله ـ أن نعرج على بعض المفاهيم اللغوية والاصطلاحية المتعلقة بمصطلح القرآن، بوصفه الجدير بالمعرفة أولا وبوصفه الكتاب الوحيد الذي يحقق هذا الإعجاز دون سواه ثانيا. وقد تعددت مواقف اللغويين من اشتقاق اسم (القرآن) الكريم، ويقف الباحث في هذا المقام في شتى المراجع المتخصصة على مجموعة ضخمة من الاشتقاقات التي تعكس آراء اللغويين، وسنكتفي في هذا المقام باستعراض بعضها، « **فالشافعي** يرى أن القرآن (الكريم) اسم علم، غير مشتق

خاص بكلام الله تعالى. ويرى **الفراء** أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن. ويقول **قطرب** إنما سمي قرآنا لأن القارئ يظهره ، ويبينه من فيه ، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فيسميه قرآنا. ويرى **ابن عطية** أن القرآن مصدر من قولك قرأ الرجل يقرأ قرآنا وقراءة. »[1] . أما في الاصطلاح ، فالقرآن الكريم « كلام الله المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.»[2] ، الهادي للصراط المستقيم ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَهدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذنِهِۦ وَيَهدِيهِم إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّستَقِيمٖ ١٦ ﴾[3] . وقد أنزل القرآن الكريم على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم حاملا أعظم رسالة للوجود هي الإسلام. وكان لنزول هذا الكتاب السماوي تبيانا وموعظة للناس مقصدان: الهداية إلى ما فيه صلاح الناس في معادهم ومعاشهم وتنظيم عبودية الإنسان لربه وكلها تكريم له ، وأن يكون هذا الكتاب العظيم آية شاهدة مصدقة لما يبلغ النبي عن الله عز وجل بوصفه معجزة أعجزت أفصح البلغاء عن الإتيان بمثله.

لقد عجزت العرب قاطبة عن الإتيان بمثل هذا القرآن الذي تحداهم عل أربع مراحل هي:

1- <u>أن يأتوا بمثله</u>: مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَٱلجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأتُواْ بِمِثلِ هَٰذَا ٱلقُرءَانِ لَا يَأتُونَ بِمِثلِهِۦ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾[4] .

2- <u>أن يأتوا بحديث مثله</u>: قال الله تعالى في هذا الشأن: ﴿ أَم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤمِنُونَ ٣٣ فَليَأتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ ﴾[5] .

3- <u>أن يأتوا بعشر سور مثله</u>: تبعا لقول المولى عز وجل: ﴿ أَم يَقُولُونَ ٱفتَرَىٰهُۖ قُل فَأتُواْ بِعَشرِ سُوَرٖ مِّثلِهِۦ مُفتَرَيَٰتٖ وَٱدعُواْ مَنِ ٱستَطَعتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّم يَستَجِيبُواْ لَكُم فَٱعلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَل أَنتُم مُّسلِمُونَ ١٤ ﴾[6] .

4- <u>أن يأتوا بسورة مثله</u>: حين قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم فِي رَيبٖ مِّمَّا نَزَّلنَا عَلَىٰ عَبدِنَا فَأتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثلِهِۦ وَٱدعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ٢٣ ﴾[7] .

وهكذا ، ملك القرآن الكريم على قلوبهم ونفوسهم ، ولم يلبثوا أن انشرحت صدورهم له ولبلاغته ، ولأسلوبه ، فكان بالنسبة إليهم ، وهم حقا ملوك البلاغة ، نمطا فذا فريدا من البيان ليس هو بالشعر ولا بالكهانة وليس باستطاعة بشر أن يقلده[8] .

مثلما تناولت المعاجم والقواميس العربية مصطلح القرآن وخصت معانيه بالضبط والإيضاح ، تناولت في موضع آخر مصطلح الإعجاز ، فهاهو **ابن منظور** على سبيل المثال يقول: « عجز عن الأمر يعجز ، وعجز عجزا ، ويقال: أعجزت فلانا إذا ألفيته عاجزا. وفي الحديث كل شيء بقدر حتى العجز والليس. وقوله تعالى: ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ وقال الزجاج معناه ظانين أنهم يعجزوننا ، وقرأت معجزين وتأويلها أنهم يعجزون من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويثبطونه عنه وعن الإيمان بالآيات ، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وما

أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ قال: ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، وقال: أعجزني فلان إذا فاتني...» [9].

حدد هذا المفهوم تحديدا لغويا، فرجع صاحبه إلى جذره اللغوي ليقف على دلالته، ولكنه لم يستطع التخلص من الدلالة الاصطلاحية، بدليل عودته إلى سياق الحال مع ربط المفهوم بالسياق الديني، والاستشهاد بآيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة قصد الإشارة إلى دلالات الإعجاز السياقية. وتغليب الدلالة الدينية على الأنواع الأخرى مرده أن ابن منظور متأخر نوعا ما، ولهذا فقد غلبت في عصره هذه الدلالة الاصطلاحية، لأنها كانت الأكثر شيوعا وذيوعا، والمعجم لا يقيد إلا المعنى الأكثر استخداما وانتشارا لدى الجمهور.

أما **الفيروز آبادي** فقال في الإعجاز: « العجز مثلثة وكندس وكتف مؤخر الشيء... والعجز والمعجز والمعجزة وتفتح جيمها، والعجزان محركة، والعجوز بالضم، الضعف، والفعل كضرب وسمع فهو عاجز من عواجز وعجزت كنصر وكرم عجوزا بالضم، صارت عجوزا والتعجيز التثبيط، ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة، وقوله تعالى (معاجزين) أي يعاجزون الأنبياء وأولياءهم: "يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله تعالى، أو معاندين مسابقين أو ظانين أنهم يعجزوننا".» [10].

يبدو من خلال هذا التعريف أن صاحبه قد دقق في اللفظ، فانطلق من العموم إلى الخصوص، إذ أتى بالجذر اللغوي وحدد معناه، ثم انتقل إلى تعداد أغلب الدلالات السياقية لهذا الأخير، وكشف بذلك عن التطور الدلالي الذي لحق بهذا اللفظ، وكشف أيضا عن طواعيته وليونته من خلال هذه الاستخدامات المختلفة ليصل إلى لفظ معجزة، فعرفه بأنه ما أعجز به الخصم عند التحدي، وانتقل بعدها إلى النص القرآني ليقف على دلالته القرآنية فتقاطع بذلك مع ابن منظور في أن اللفظ يعني التثبيط والفوت والسبق، كما وقفا كلاهما عند قوله تعالى (معاجزين).

أما المعجم الوسيط فقد تعامل مع هذه الوحدة المعجمية مستهلا بالدلالة الحسية، فقد ورد فيه: « عجزت المرأة عجوزا: كبرت وأسنت. وعجز عن الشيء عجزا وعجزانا: ضعف ولم يقدر عليه. ويقال: عجز فلان: لم يكن حازما.. وأعجز فلان: سبق فلم يدرك، وأعجز الشيء فلانا: فاته ولم يدركه. ويقال: أعجزه فلان، وأعجزه: صيره عاجزا. وأعجزه فلانا: وجده عاجزا وعاجز فلان: ذهب فلم يصل إليه ولم يقدر عليه. يقال طلبته فعاجز: سبق فلم يدرك... والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبي تأييدا لنبوته، والمعجزة: ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله.» [11].

ما يلاحظ على تعامل المعجم الوسيط مع هذه الوحدة المعجمية أنه وفى بكل جوانبها الدلالية وأنواعها الحسية والمعنوية المجردة، والمعجمية والسياقية، ليستقر به المقام في

الأخير عند الدلالة الاصطلاحية الدينية ، ويكون بذلك قد شمل جميع معاني اللفظ. وهكذا فإن المعاجم العربية تتبعت هذا اللفظ معجميا ، كما سجلت بعض الدلالات المستحدثة والسياقية المرتبطة بالنص الديني ، وعلاقة الإعجاز بالله والعباد ، وقد حرص علماء اللغة على ربط الحسي بالمجرد في تحديد هذا المفهوم.

إذا انتقلنا إلى مدلول الإعجاز في الاصطلاح فإنه لا يقل ثراء وتنوعا عن سابقه ، ومن بين الذين تناولوا مفهومه اصطلاحا نذكر **ابن خلدون** حين قال: « إعجاز القرآن إنما هو في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال ، منطوقة ومفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة وصفها وتركيبها.» [12]. ينم هذا التعريف عن نظرة اصطلاحية شمولية وتامة ، ذلك أن صاحبه قد قرأ الحسن من جميع جوانبه ، فجاء الإعجاز عنده مختصا بوفاء الدلالة بجميع مقتضيات الأحوال ، وهو يمثل قمة الكلام من خلال الألفاظ من حيث الانتقاء والجودة والوصف والتركيب. وبهذا تميز ابن خلدون عن بقية العلماء بابتعاده عن تحديد الإعجاز تحديدا لغويا وبشكل عام ، ليصل إلى تحديد مفهومه تحديدا دقيقا يجمع بين العلمية والكمال دون الانصراف عن سياق القرآن الكريم وارتباط الإعجاز به.

أما **مالك بن نبي** فقد حدد مفهوم الإعجاز قائلا: « أهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز. وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها. فأما حين تريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لحجة ، وإدراك المسلم لحجة الإسلام بخاصة فلابد من مراجعة القضية في ضوء التاريخ.» [13] ، ويردف المفكر ذاته قائلا: « فالإعجاز هو بالنسبة إلى شخص الرسول الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها ، وهو بالنسبة إلى الدين وسيلة من وسائل تبليغه. وهذان المعنيان للإعجاز يضيفان على مفهومه صفات معينة:

أولا: أن الإعجاز كحجة لابد أن يكون في مستوى إدراك الجميع ، وإلا فاتت فائدته ، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم ، فهو ينكرها من حسن نية أحيانا.

ثانيا: ومن حيث كونه لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثا: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه ، وهذه الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين ، الصلة التي تختلف من دين لآخر ، باختلاف ضرورات التبليغ.» [14].

يعد **مصطفى صادق الرافعي** واحدا من الذين أدلوا بدلوهم في مفهوم الإعجاز حين قال: «إنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه ، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت ، فيصير من الأمر المعجز إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمرا بالدهر على مداه كله...» [15].

ومما تقدم ذكره من تعريفات فإن الإعجاز يعني الفوت والسبق والتثبيط ، وهو يخص القرآن الكريم دون سواه بمجموعة من الخصائص التي جعلت الناس لا يقدرون على الإتيان بمثله أو خير منه. والإعجاز « إثبات العجز ، والعجز في التعارف اسم للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة ، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن المعارضة في معجزته الخالدة ـ وهي القرآن ـ وعجز الأجيال بعدهم.» [16].

بعد هذه النبذة الوجيزة التي ضمناها تعريفات الإعجاز اللغوية والاصطلاحية المختلفة سنلج مباشرة صلب الدراسات العربية القديمة التي جعلت من هذا الكتاب الرباني وبيان أوجه إعجازه مادة لها. لقد مضى عصر النبوة ، وعصر الخلفاء الراشدين ، ودولة بني أمية وشطر كبير من دولة بني العباس دون أن يحاول أحد التعرض لقضية الإعجاز في القرآن الكريم والكشف عن أسراره ودلائله ، ولم يكن ذلك عن تقصير في حق هذه الرسالة السماوية ، وإنما كان إعظاما لأمر القرآن وإجلالا له وتهيبا لمقامه ، وصونا لذاته أن يكون غرضا للآراء والأهواء ، « ولكن اتساع رقعة الإسلام ودخول كثير من غير العرب في هذا الدين جعل شرح الآيات القرآنية وتفسيرها أمرا ضروريا لأولئك الذين ليس لهم حظ من اللغة العربية يصلهم بالقرآن الكريم صلة مباشرة ، فكان أن أخذ بعض العلماء يضعون للقرآن تفسيرا للغريب من مفرداته أو تفسيرا كاملا لمعنى آياته ، واستخراج أحكام الشريعة منها.» [17].

كان تأثير القرآن الكريم واضحا في اتخاذه مدارا للدراسات البلاغية ، ومن آيات ذلك أن يؤلف **أبو عبيدة معمر بن المثنى** (توفي 207 هـ) كتابه (مجاز القرآن) بسبب آية استغلق على **إبراهيم بن إسماعيل** ـ الكاتب ـ فهم التشبيه فيها ، وكان ذلك في مجلس **الفضل بن الربيع** سنة 188هـ ، وهي قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ ﴾ [18]. فجاء الجواب عن هذا السؤال فاتحة لنمط من الدراسة النقدية التي تنهل من أدوات إجرائية حديثة مستمدة من التفاعل الذي أحدثه النص القرآني في الواقع العربي. وكان رد أبي عبيدة «إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول **امرئ القيس**:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت في ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز.» [19].

لقد كان الاستفسار في هذا الموضع عن شيء غامض وهمي ، وجاء الرد معتمدا على المماثلة ، فرد أبو عبيدة هذا التركيب إلى طريقة العرب حين استحضر نصا شعريا ليشرح به التركيب ، وليدل به على صواب الآية القرآنية ، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين. والنص الشعري عند أبي عبيدة بمثابة الضابط الذي يعتمد عليه في إقرار حقائق هذا الكتاب

المقدس ، وبهذا النص كان يقيس صواب النص القرآني. وكان الشعر بمثابة أداة طيعة تخدم مفهوم المجاز عند أبي عبيدة ، وهو مفهوم يعنى بدراسة النص القرآني للكشف عن الجانب الفني فيه ، وكذا تأويل نصوصه من خلال هذا الكشف ، فقد ألفينا في كتابه ذكرا للمجاز والتشبيه والاستعارة وربط كل ذلك بالتخريج والتأويل للآيات الكريمة ، واعتمد هذا الإجراء على الإكثار من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربي ، كما التفت إلى أسباب النزول كلما كان ذلك ضروريا لفهم النص وتفسيره.

كان أبو عبيدة حريصا على تحديد المفاهيم التي يمر بها حرص العالم الناقد الذي يعنى بالتدقيق في أدواته الإجرائية. ويبدو أن مفهوم القرآن هو أول ما تناوله بقوله: « القرآن اسم كتاب الله خاصة ، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب غيره ، وإنما سمي قرآنا ، لأنه يجمع السور فيضمها ، وتفسير ذلك في آية من القرآن. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ ﴾ [20] مجازه: تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ﴾ [21] مجازه: فإذا ألفنا منه شيئا ، فضممناه إليك فخذ به ، واعمل به وضمه إليك. وقال **عمرو بن كلثوم** في هذا المعنى:

ذراعي حرة أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أي لم تضم في رحمِها ولدا قط. ويقال للتي لم تحمل قط: ما قرأت سلى قط. وفي آية أخرى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [22] مجازه: إذا تلوت بعضه في إثر بعض ، حتى يجمع وينضم بعضه إلى بعض ، ومعناه يصير إلى معنى التأليف والجمع. وإنما سمي القرآن فرقانا لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين المسلم والكافر ، وخرج تقديره على تقرير: رجل قنعان ، والمعنى أنه يرضي الخصمان المختلفان في الأمر بحكمة بينهما ويقنعان به.» [23].

وهكذا نجد أبا عبيدة يغطي المفهوم من كل جوانبه ليكشف عن مستوياته الدلالية فوقف عند الدلالة المعجمية للقرآن على أنه كتاب الله ، ثم انتقل إلى الدلالة السياقية [24] ليعلل المفهوم ، واعتمد في ذلك على ثلاثة تراكيب من القرآن الكريم بالإضافة إلى نص شعري ، ليؤدي هذا إلى قدر من الفهم المشترك بين الناس ، ولا ينفي في الوقت ذاته التطور الذي مس هذه الكلمة بعد دخولها إلى النص المقدس لتشمله ويشملها مراعية في ذلك خصائص اللغة العربية.

لقد اتجه أبو عبيدة إلى قراءة النص القرآني قراءة جديدة تعتمد على الكشف عن جماليات الأسلوب فيه من داخل القرآن الكريم نفسه مع الاستعانة بأدوات مساعدة. وتستند قراءته هذه إلى أساس فكري مذهبي ، فهو رجل مسلم ذو نظرة خاصة للإسلام ، و « منهج القراءة يتدرج على سلم ثلاثي ، أول مدارجه التنظير ، إذ يقتضي الاحتكام إلى مسند مبدئي هو إما رصيد فلسفي ، أو منطق مذهبي ، أو مضمون فكري حضاري عام. والمدرج الثاني هو المواصفة ، وذلك بإجراء حوار جدلي بين المنطق النظري والنص الذي نتخذه موضوعا للمعالجة. وأما الثالث فهو الممارسة ، وتتمثل في الفحص العيني بغية تشخيص ظواهر الأجزاء

الداخلة في المنظومة الكلية للنص.» [25]، ونحن لا نعدم أن أبا عبيدة، ومن جاء بعده من الدارسين، قد توفر على هذا السلم الثلاثي، ولولا وجوده لما أثمر بحثه إلى وجود دراسات الإعجاز القرآني. ومع هذا كله، نطرح السؤال الآتي: هل كانت ممارسة أبي عبيدة ممارسة تقليدية أو أنها قراءة حداثية للنص انطلاقا من هذا التحديد؟.

إذا عدنا إلى كتاب (مجاز القرآن) فإننا سنستنتج أن الرجل قد قرأ هذا النص قراءة حداثية قياسا إلى العصر الذي وجد فيه، فقد تتبع خطوات القراءة المشار إليها آنفا، كما تتبع مدارج الحداثة التي تحتفظ بالمنظومة الثلاثية للقراءة، ولكنه عكس « ترتيب مدارجها فيشتق مقابلا ينطلق من الممارسة التي توحي بالعدول عن النمط السائد والمعيار المطرد، فيتجه صوب المواصفة لتفسير هذا التجاوز والانزياح، إلى أن يستقر في التنظير حيث يؤسس قواعد الحداثة باعتبارها تجديدا للرؤية وتغييرا للمطرد.» [26]، فقد أحدث بصنيعه هذا نمطا جديدا في الممارسة النقدية لما توجه إلى إعجاز القرآن الكريم، ليكشف عن ذلك التجاوز الذي ارتبط بهذا النص، والذي لم يفهمه بعض عامة الناس، ومن ثم فقد أسس لنوع جديد من الدراسة.

إن هذا الخروج عن المألوف في الدراسة هو الذي أعطى لتوجهه خصوصية في النظرة وفي المعالجة، وحتى مفهوم المجاز عنده لم يتقيد فيه بالمفهوم البلاغي المتواضع عليه، بل كان المجاز عنده واسع الدلالة حين كان « يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمة: مجازه كذا وتفسيره كذا، ومعناه كذا، وغريبه، وتقديره، وتأويله على أن معانيها واحدة أو تكاد، ومعنى هذا أن كلمة المجاز عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال عن المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد، ولعل ابن قتيبة قد تأثر في كتابه (مشكل القرآن) بأبي عبيدة في استخدام كلمة المجاز بهذا المعنى العام.» [27].

إننا لا نجانب الصواب إذا قلنا بحداثة النص القرآني في العصر الذي نزل فيه، ذلك أنه مثل منذ تلاوة آياته الأولى خروجا عن المتعارف عليه، بل إنه كان في الكثير من مستوياته التركيبية والتوزيعية انزياحا عن اللغة المألوفة والمتواضع عليها. ولا أحد ينكر أن القرآن الكريم كان مزدوج الوظيفة، فهو إبداع في الفن بوصفه قولا من العزيز الحكيم، وهو إبداع في الحداثة بوصفه عدولا عن المطرد وكسرا للنمط السائد، ولا شك أن أبا عبيدة قد وضع اللبنات الأولى لمشروع دراسة النص الحديث بأدوات إجرائية تتماشى وحداثة النص، ومن ثم تعامل معه تعاملا نوعيا فتح المجال أمام مجموعة من الدارسين لتطوير هذه التجربة وهذا المشروع من أجل مباشرة هذا النص المقدس مباشرة تنطلق من مسلمات، وتعتمد على مقولات نقدية تشخص معالم الأثر القرآني وتكشف عن خصوصياته قياسا إلى الأثر الأدبي لأن « النقد لا يتجدد إلا إذا وجدنا نظامه المفهومي، أو قل إنه لا يتحول إلى حداثة نقدية إلا عندما يستحدث جهازا معرفيا يباشر به النص الأدبي كما لم يباشره به السابقون.» [28].

إن كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة قراءة تعنى بالتحول الذي أصاب الألفاظ العربية بعد دخولها إلى النص القرآني، والوقوف عند دلالاتها السياقية في حدود ما تسمح به طبيعة

القراءة ، خاصة وأنها كانت فتحا على مجال حيوي من المعالجة النصية. فقد وقف عند الآية الكريمة: ﴿ وَأُشرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلعِجلَ ﴾[29] فقال:« سقوه حتى غلب عليهم ، مجازه مجاز المختصر ، وأشربوا في قلوبهم العجل ، حب العجل ، وفي القرآن: ﴿ وَسئَلِ ٱلقَريَةَ ﴾ [30] مجازها: أهل القرية. وقال **النابغة الذبياني**:

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن

أقيش: حي من الجن ، أضمر جملا يقعقع خلف رجليه بشن.» [31] ، ولعل ما ذكره أبو عبيدة هاهنا يدخل في صميم المجاز المرسل ، إذا انتقل اللفظ من معنى إلى آخر سواء في النص المقدس أم في بيت النابغة الذبياني ، ويحيلنا هذا إلى مبدأ هام «في بلورة نظرية الخطاب ويتمثل في أن ناموس اللغة يسمح بالابتعاد عن القالب الموضوع مما يسعى بالعرف في الاستعمال ، فتكون الطاقة الإبداعية متولدة عما توقعه في نظام اللغة من اضطراب يصبح هو نفسه نظاما جديدا.» [32].

لقد اهتم أبو عبيدة بالبحث في نماذج جزئية من الكتاب المقدس ، والتي تجسد خصوصية هذا النص ، وكأنه يريد النفاذ من الجزء إلى الكل ومن الخصوص إلى العموم ، «لأن كل جزئية في النص يجب أن تمكننا من النفاذ إلى مكنونه بما أنه كل يضم جميع الأجزاء وإذا ما تم النفاذ فيجب أن نوفق إلى معاينة جزئية ما تعطينا مفتاح الأثر ثم نثبت فيما إذا كانت القاعدة الفكرية قادرة على تفسير مجموع الأثر برمته.» [33] ، لأن الحافز قوي لمثل هذه المعالجة ، وقد دفع الدارسين دفعا نحو الدراسة والتحليل لهذا النص الذي جمع بين جمال الأسلوب وقوة التعبير ، وحسن البيان. وقد « دفع برجال النقد والأدب إلى مقاييس معينة استنبطوها من مباحثهم حول القرآن وإعجازه ، ومقارنة أسلوبه بأساليب الشعر والنثر.

وقد كان الدافع الأول لأولئك العلماء هو الدفاع عن الكتاب المقدس ضد نزعات الشك الفلسفية ، ورد التناقض والمطاعن التي رمي بها الكتاب ، ثم لإثبات الإعجاز فيه. فقد امتزجت العقيدة في المثل الأعلى بالرغبة الأدبية في استطلاع جوانب العظمة في هذا المثل.» [34].

تعد قضية الإعجاز في القرآن الكريم من القضايا البارزة التي تعاورها العلماء بالبحث في أثناء تفسيرهم للقرآن ، وردهم على منكري النبوة ، وخوضهم في علم الكلام ، من أمثال: **علي بن ربن** كاتب **المتوكل** في كتاب (الدين والدولة)، **وأبي جعفر الطبري** في تفسيره (جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن)، **وأبي الحسن الأشعري** في (مقالات الإسلاميين)، **وأبي عثمان الجاحظ** في كتاب (الحجة في تثبيت النبوة)، دون أن ننسى **أبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري** في كتابه الجليل (تأويل مشكل القرآن).

كان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن ، فقد ذهب **إبراهيم بن السيار النظام** ـ من بينهم ـ إلى أن القرآن الكريم نفسه غير معجز ، وإنما كان إعجازه بالصرفة ، وأن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم

به. وهذا الرأي هو ما أشار إليه **الأشعري** في معرض حديثه عن النظام ، هذا الأخير الذي قال: « إن الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم.» [35].

بهذا التوجه ونحوه يعزى القول بالصرفة إلى **أبي إسحاق الإسفراييني** من أهل السنة **والمرتضى** من الشيعة ، **والنظام** من المعتزلة مثلما ذكرنا. وإذا تأملنا هذا التوجه الذي التمسوه ، علمنا أن عدم معارضة العرب للقرآن الكريم لم تجئ من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم ، بل جاءت من ناحية عجزهم عنها بسبب خارجي عن النص القرآني ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا ، وذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين ، ولو هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ، لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه.

يبدو أن النظام قد قصد إلى الاعتراف بالإعجاز القرآني والبرهنة عليه ، وقدم لذلك تعليلا ، إلا أن الكثير من العلماء الذين عاصروه ـ وعلى رأسهم المعتزلة أنفسهم ـ لم يقبلوا به ورفضوه وقدموا الحجج والبراهين على بطلانه. أما من المحدثين فقد وقف **مصطفى صادق الرافعي** عند هذه القضية ، وعالجها معالجة تجمع بين العلمية والتأثر العاطفي ، حين قال عن النظام: « فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النظام إلى أن الإعجاز كان لصرفة ، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها... قلنا وكأنه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن.» [36].

أما الباحث **سليمان عشراتي** فقد ذهب مذهبا متميزا حين ركز على أدبية الخطاب القرآني فقال في هذا الشأن: « بيد أن هذه النظرة لا تصمد متى ما نظرنا إليها بعين الواقع التاريخي الذي لابس التنزيل ، فلقد دأب الخطاب القرآني على الاعتداد بأدبية آياته المحكمات ، ودأب أيضا على تحدي أهل البيان أن يجاوروه فيها ، كما فعلوا ، قصورا عن اقتحام أسوار أدبية لا قبل لهم بها ، في كل ما مارسوه من أجناس قولية وفنون كلامية ، والقول بالصرفة ، علة للإعجاز ، يجعل أدبية القرآن أمرا تعليميا مدركا.» [37].

على هدى الرافعي سار الكثير من الدارسين والمفكرين المحدثين مثل: **عبد العزيز عبد المعطي عرفة** في كتابه ( قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ) **ونور الدين عنتر** في كتابه ( القرآن والدراسات الأدبية ) [38]، ولم يكتب لهذا القول الذيوع والانتشار لمخالفته طبيعة الأمور ، ولقصره وجه الإعجاز على معطى خارجي دون الإشارة إلى أوجهه الكامنة في باطنه . غير أن هذا الرفض لا يلغي الأمر جملة وتفصيلا ، فقد تكون الصرفة سببا من الأسباب ، وتصبح واردة عند المؤمن بالله تعالى والمقر بقدرة الله الواسعة ، وبعجز الإنسان عن رفع التحدي والإتيان بمثل القرآن.

لم يكن رأي النظام الوحيد الذي استنكرته عقول المفكرين وألبابهم ، فقد ذهب **هشام الفوطي وعباد بن سليمان** إلى أن القرآن الكريم لم يجعل علما للرسول صلى الله عليه وسلم وهو عرض من الأعراض ، والأعراض لا يدل شيء منها على الله عز وجل ولا على نبوة النبي

وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهم، منبعا غزيرا للقول في الإعجاز القرآني. وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، صنيع **أبي الحسين الخياط** و**أبي علي الجبائي** بنقضهما على **ابن الرواندي** كتابه (الدامع) الذي طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعاني، وقال إن فيه سفها وكذبا.

من جملة الاتجاهات الفكرية التي تناولت إعجاز القرآن بالدراسة والتحليل نذكر الاتجاه القائل بأن القرآن معجز ببلاغته، وقد انصب اهتمام أصحاب هذا الاتجاه بالناحية البلاغية فيه لاعتقادهم أن البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز، أما أحسن من يمثل هذا الاتجاه فنذكر: **ابن قتيبة عبد الله بن مسلم** خطيب أهل السنة في زمانه، وقد ناضل عن مذهبه ضد تيارات المعتزلة واشترك في الكثير من المناقشات الكلامية معهم في عصره.

نثر ابن قتيبة جملة ملاحظاته البيانية في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، وتكلم عن المعجزات في الكلام بمعناه الواسع، ثم انطلق صوب النص السماوي وقام بدراسة الصور البيانية فيه، وخلص من خلال مقارنته بين أشعار الشعراء والقرآن الكريم، إلى التفاوت بين أشعار الشعراء بل بين قصائد الشاعر الواحد، غير أن النص القرآني غير متفاوت الإعجاز وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة، ويعد هذا المبدأ مهما في الدراسة والتحليل.

يرى ابن قتيبة أنه يمكن إدراك إعجاز بلاغة القرآن بكثرة المدارسة، أو بالأحرى بالتمكن من ناصية اللغة العربية وبلاغتها، وهذا ما يؤكده قوله: « وإنما يعرف فضله من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات.» [39]. وحدد في موضع آخر من كتابه جملة من الخصائص البلاغية للغة العرب فقال: « فلهم المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص.» [40]. فالقرآن الكريم معجزة لأنه قرن كل خصائص اللغة العربية ووصل بها إلى القمة التي لا تدرك من قبل البشر، على الرغم من تمتع العرب بحاسة بلاغية تؤهلهم لأن يميزوا بين كلام الله وكلام البشر، إلا أنهم لم يستطيعوا الإتيان بمثله.

لم يعرف العرب كتابا يشتمل عنوانه على كلمة الإعجاز قبل كتاب (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) **لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي**، وهو واحد من المعتزلة، توفي سنة 306هـ وهو من الكتب التي لا يعرف عنها غير اسمها المجرد. ويظهر أن **علي بن عيسى الرماني** قد استقى كلمة إعجاز من هذا الكتاب ووظفها في عنوان كتابه (النكت في إعجاز القرآن)، وقيل إن صاحبه قد اتبع فيه نهج ابن قتيبة لتأثره بهذا الأخير أيما تأثر.

بدأ الرماني كتابه ببيان وجوه إعجاز القرآن، وقال إنها تظهر من سبع جهات هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة، « ثم جعل البلاغة ـ وهي الوجه الرابع من وجوه الإعجاز ـ ثلاث طبقات وقال: إن ما كان في أعلاها معجز وهو بلاغة القرآن، ثم عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن. ثم قسم البلاغة إلى عشرة أقسام، وهي: الإيجاز والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين والمبالغة، وحسن البيان.» [41].

لقد أوجد هذا الاتجاه أتباعا زكوه بأفكار ودراسات قيمة في سبيل الكشف عن بلاغة القرآن وعن إعجازها كدراسة **أبي هلال العسكري** في الصناعتين، التي جاءت لتكشف عن التباين بين بلاغة النص القرآني وبلاغة النص البشري، فالقرآن الكريم معجز « بما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها.» [42].

اشترط العسكري لمعرفة إعجاز القرآن البلاغي، معرفة اللغة العربية وتعلمها حتى يستطيع المرء أن يميز بين مراتب الكلام، ولهذا وضع كتابه ليذلل به تلك الصعاب. قال في هذا الشأن: « فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة... فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار.» [43].

تصنف مساهمة **ابن سنان الخفاجي** ـ بعد المساهمات المشار إليها سابقا ـ ضمن المساهمات الجادة في سبيل الوقوف عند عتبات الجانب البلاغي لإعجاز النص القرآني، وقد أثرت هذه الدراسة التجارب التي سبقتها، وقدمت إضافات نوعية بتكامل الأدوات الإجرائية التي استطاعت أن تكشف عن جوانب جديدة، منها ما تعلق بالعلوم الأدبية أو ما تعلق بالعلوم الشرعية، مع الإشارة إلى أن القرآن معجز من جانب خرق العادة بفصاحته، ومن هنا راح المفكر يركز الحديث على البلاغة والفصاحة والإعجاز حيث وظفت هذه المفاهيم كأدوات مهيمنة لفك استغلاق النص وتعليل الظاهرة القرآنية.

يعد الاتجاه القائل بإعجاز القرآن الكريم بنظمه آخر الاتجاهات الفكرية القديمة، ولعل **الجاحظ** أول من قال إن النظم أساس الإعجاز، وقال بغريب تأليفه وبديع تركيبه في كتاب حمل عنوان (نظم القرآن)، وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا هذا المؤلف، فقد ضاع فيما ضاع من كتب الجاحظ وغيره من علماء المسلمين في موجات الفتن، والأحداث التي نزلت

بالمجتمع الإسلامي ، على أننا نستطيع القول إن الذي قيل من الجاحظ في هذا الكتاب لا يعدو خطرات عارضة لا يقف عندها طويلا ولا يتوفر عليها زمنا ، وهذا ما أشار إليه **الباقلاني** في كتابه (إعجاز القرآن) إذ قال: « وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى.» [44].

جاء **الخطابي** بعد الجاحظ ، هذا الأول الذي يعد من أهم الذين بحثوا الإعجاز بحثا علميا منظما ، بتأليفه رسالة في هذا الميدان اختار لها عنوان (بيان إعجاز القرآن)، استهلها بالمذاهب الكثيرة التي قالت بالإعجاز وعدم استقرارها على رأي واحد ، لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، ثم عرض للأقوال التي قيلت قبله في وجوه الإعجاز مع التعقيب عليها ومخالفتها بالبيان والحجة ، وبدأ قبل كل الذي ذكرنا برأي القائلين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه ، وعقب عليه بقوله: « وهذا ـ من وجوه ما قيل فيه ـ أبينها دلالة ، وأيسرها مؤونة ، وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه.» [45].

بعد أن رفض الخطابي كل هذه الآراء ولم يقبلها لأن تكون وجوها للإعجاز ، حاول أن يحدد من جانبه الوجه الذي يرتضيه له ، وذكر أن دقيق النظر ، وشاهد العبر ، قد دلاه على ما يباين به القرآن سائر الكلام ، وأن: « أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة وغير متساوية. فمنها: البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرسل.» [46]، فحازت بلاغات القرآن الكريم في كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة على الرغم من تضادهما لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان نوعا من الوعورة ، وهذه فضيلة خص بها القرآن ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

بعد كل هذا ، أخذ الخطابي في الكشف عن الوجه الذي قدر أن عجز العرب عن تحدي القرآن الكريم قد جاء منه ، فقال: « وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، وبأوضاعها التي هي ظروف المعاني ، والحوامل لها. ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الفضل عن الأحسن من وجوهها ، إلى أن يأتوا بكلام مثله. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط لهما ناظم.» [47]، ولما جعل بلاغة الكلام وإعجازه قائمين على الأشياء الثلاثة ، ارتأى أن يفتش عن الأسس الثلاثة في القرآن ، وهذه ناحية تطبيقية لنظريته في الإعجاز تحسب له ولمؤلفه.

مما سبق ، نلاحظ أن الخطابي اعتبر المعنى ركنا في الإعجاز ، وكذلك اللفظ ، وكذلك النظم ولم يجعله الركن كل الركن ، ثم ختم رسالته بذكر وجه آخر من وجوه الإعجاز وهو

صنيعه في القلوب ، وتأثيره في النفوس ، وهذا الوجه هو المعجزة القائمة في القرآن أبدا ، تسع الخلق جميعا عالمهم وجاهلهم ، عربيهم وأعجميهم ، وإنسهم وجنهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قُل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱستَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعنَا قُرءَانًا عَجَبًا ١ يَهدِيٓ إِلَى ٱلرُّشدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ ﴾ [48].

ألف **أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني** كتابه (إعجاز القرآن) بعد استقراء أغلب الدراسات التي سبقته إثراء منه لهذا الاتجاه ، و الباقلاني من العلماء الذين نظروا في إعجاز القرآن الكريم نظرا مباشرا ، ولعله أول من ألف في الإعجاز كتابا مستقلا به ، مقصورا عليه ، إذ كان كل ما يعرف في هذا الباب رسائل قصيرة أو كلمات منثورة في مقدمات تفاسير القرآن.

اختار هذا الباحث النظم لإثبات الإعجاز ، وقال بعدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب ، ذلك أن عجيب النظم هذا وبديع التأليف « لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حساب اختلاف هذه الأمور.» [49].

ليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز النص القرآني من منظور الباقلاني ، بل هناك أمران آخران: أولهما: الطول الذي استوعبه ذلك النظم دون تفاوت. وثانيهما: أن هذا النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب. وعرض نماذج من نثر البلغاء وشعر الشعراء لإدراك التفاوت. وبين أن ما استأثر بتفصيل النقاد في الشعر لا يبلغ شيئا بجانب بلاغة القرآن ، ولذلك درس قصيدة **لامرئ القيس** ، وأخرى **للبحتري** ، ثم سورة من سور القرآن الكريم ليفصح عن رأيه السالف الذكر. وهذا الذي ميزه عن غيره من الدارسين فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق ، وبين الرائع من كلام المخلوق. وقد كان معجبا بكل كلمة ومعنى وأسلوب في القرآن وقف عنده ، ونعت ذلك بنعوت المفاضلة دون الإشارة إلى مواطن الفصاحة ولا إلى مواطن الجمال والفنية [50]. ومع ما في كتاب الباقلاني مما عده الدارسون الذين أتوا بعده سقطات وهفوات ، فيكفيه أنه أول كتاب كامل وأثر باق في الإعجاز القرآني ، جمع فيه صاحبه آراء سابقيه وحفظ لنا آثارهم.

من مواطن الفصاحة التي لم يشر إليها الباقلاني في كتابه ، انطلق **القاضي عبد الجبار** في تفسيره للإعجاز القرآني ، وأفرد لها جزءا مهما في كتابه (المغني) ، فقد رأى أن الكلام الفصيح هو ما جزل لفظه وحسن معناه ، ثم إن القرآن لم ينفرد بأسلوب خاص ، فرأى أن ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عند العرب قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة. وقد يكون النظم واحدا وتقوم المزية في الفصاحة. ومن هنا انطلق يقول إن القرآن انفرد بفصاحة تقوم على حزالة اللفظ وحسن المعنى. واعتنى هذا الباحث بالنظم عناية شديدة ، ورأى أنه المعول عليه في إقامة ميزان

الكلام ، وربط هذا المفهوم باللفظ والمعنى ، وذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات: مفهومها في ذاتها ، ومفهومها حين تتداول عليها الحركات الإعرابية ، ومفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام ، فتتقدم أو تتأخر ، ومن هنا أكد على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته ، وربط بينه وبين هذه المفاهيم الثلاثة ، وذهب إلى أن المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهد العرب من البلاغة ، وليس إعجاز القرآن أنه جاء بنظم لم تجر العادة بمثله[51].

لقد أولى **عبد القاهر الجرجاني** هذه المسألة عناية كبيرة ، وذهب إلى أن لا ميزة للمفردات في حد ذاتها ، لأن الناس تواضعت عليها هكذا ، وإنما ميزتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات ، وقد شبه النظم بالتأليف والصياغة والبناء والوشي. ورأى أنه أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ ، على عكس القراءة أو السماع حيث يكون اللفظ هو السابق. وأنزل هذا الدارس الكلام ثلاثة منازل: لفظ استقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه ونظم اعتمد على ترتيب المعاني وتآخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ ، وكلام حوى الحسن من طرفيه ، فجمع إلى جمال اللفظ وإشراق العبارة تساوق المعنى وتلاحم الفكرة. وهذا الأخير هو الذي يبحث عنه ويطلب التفاضل فيه بين البلغاء ، ومن جهته يكون الإعجاز. وذهب إلى أن التفاضل يكون في الكلام الذي يقبل التحوير أو التبديل ، وليس في الكلام الذي له مدلول واحد [52]. وعليه فإنه يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنية الأولى غنية كلما رجعنا إليها اكتشفنا شيئا جديدا ، والثانية ضحلة نأخذ كل ما فيها بنظرة واحدة.

ومما تقدم نخلص إلى أن الجرجاني قد جعل إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ، والنظم بالنسبة إليه هو توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلمين. كما قال بالتفاوت في النظم عند الأدباء في كتابه (الرسالة الشافية) ورأى في النوابغ والمتقدمين أن ما أتوا به لا يعد معجزا وإنما العجز ما عرف أنه فوق قوى البشر وقدرتهم ، وضرب المثل بالجاحظ الذي رأى في ما أتى به غير معجز ، وهذا هو الفرق بين النبي والعبقري.

وخلاصة كل ما قلناه حول الإعجاز القرآني ، يبدو الاتجاه الأخير القائل بنظم القرآن الأقرب إلى الصحة والصواب ، لا لأنه لقي الرواج والانتشار فحسب ، وإنما لتحقيقه الإعجاز في كل آي وسور القرآن الكريم ، قصيرها وطويلها ، على عكس أوجه الإعجاز الأخرى التي وإن تحققت في بعضها فإنها لا تتحقق في بعضها الآخر ، هذا بصرف النظر عن التجارب اللاحقة ـ الحديثة منها والمعاصرة ـ لأن النظرة قد تغيرت وتوسعت بتغير الآليات والأدوات الإجرائية المستخدمة في الدراسة.

كانت هذه أهم وجوه الإعجاز القرآني كما حددتها دراسات القرون الهجرية الخمسة الأولى مستعينة بآليات وأدوات إجرائية ارتأتها الأحسن والأمثل ، والحق أن الناظر بإنصاف إلى وجوه إعجاز النص القرآني ، تتراءى له وجوه كثيرة ومختلفة منه ، كما تتراءى للناظر إلى قطعة

الألماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع ، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه هذا الناظر وما تكون عليه قطعة الألماس من أوضاع.

هكذا بدت أوجه الإعجاز القرآني للدارس الحداثي **محمد عبد العظيم الزرقاني** في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)، قطعة ألماس متعددة الزوايا والأضلاع ، فقد حدد وجوه إعجازه على النحو التالي: لغته وأسلوبه ، وطريقة تأليفه ، وعلومه ومعارفه ، ووفاؤه بحاجات البشر ، وموقفه من العلوم الكونية ، وسياسته في الإصلاح ، وأنباء الغيب التي احتواها ، ومن آيات العتاب وما نزل بعد طول انتظار ، ومظهر النبي عند نزول الوحي عليه ، وآية المباهلة * وعجز الرسول عن الإتيان ببدل له والآيات تجرد الرسول من نسبة القرآن إليه ، وأخيرا تأثير القرآن ونجاحه.

**الإحالات**

1- محمد صالح البنداق. المستشرقون وترجمة القرآن الكريم. دار الآفاق الجديدة. بيروت. ط1. 1980. ص 12- 13 .

2- ساسي سالم الحاج. نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة القرآنية وأثرها في الدراسات الإسلامية). دار المدار الإسلامي. بيروت. ج1. ط1. 2002م. ص 253.

3- سورة المائدة. الآية: 16.

4- سورة الإسراء. الآية: 88.

5- سورة الطور. الآية: 33 و 34.

6- سورة هود. الآية: 13 و 14.

7- سورة البقرة. الآية: 23.

8- ينظر. محمد صالح البنداق. المستشرقون وترجمة القرآن الكريم. ص 17.

9- ابن منظور. لسان العرب. دار صادر. بيروت. ط1. ص 236 — 237.

10- الفيروز آبادي مجد الدين. القاموس المحيط. المكتبة التجارية. ط5. 1954م. ص 180.

11- المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة. ج1. 1960م. ص 591.

12- ابن خلدون. المقدمة. تحقيق: علي عبد الواحد وافي. لجنة البيان العربي. ص 407.

13- مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية. ترجمة: عبد الصبور شاهين. مكتبة دار العروبة. ط2. 1961م. ص 59.

14- المرجع نفسه. ص 64.

15- مصطفى صادق الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مكتبة رحال. الجزائر. ص 139.

16- تقية عبد الفتاح. الميسر في علوم القرآن. المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد. بوزريعة. د ط. د ت. ص 165.

17- عبد الفتاح لاشين. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية. دار الفكر العربي. القاهرة. ص 426.

18- سورة الصافات. الآية: 35.

19- ابن خلكان. وفيات الأعيان 5: ص 236.

20- سورة القيامة. الآية: 17.

21- سورة القيامة. الآية: 18.

22- سورة النحل. من الآية: 98.

23- أبو عبيدة بن معمر المثنى. مجاز القرآن. ج 1. ص 3، 2، 1.

24- ينظر. مختار عمر. علم الدلالة. عالم الكتب. القاهرة. ط11. 1988م. ص 37. وينظر كذلك: إبراهيم أنيس. دلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة.ط111. 1972م. ص .106

25 ، 26- عبد السلام المسدي. النقد والحداثة. دار الطليعة. بيروت. ط1. 1983م. ص 11.
27- أبو عبيدة بن معمر المثنى. مجاز القرآن. من مقدمة المحقق. ص 18- 19.
28- عبد السلام المسدي. النقد والحداثة. ص 16.
29- سورة البقرة. من الآية: 93.
30- سورة يوسف. من الآية: 82.
31- أبو عبيدة بن معمر المثنى. مجاز القرآن. ص 47.
32- عبد السلام المسدي. النقد والحداثة. ص 41.
33- عبد السلام المسدي. النقد والحداثة. ص 48.
34- محمد عبد المطلب مصطفى. اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. دار الأندلس. ط1. 1983م. ص 80.
35- أبو الحسن الأشعري. مقالات الإسلاميين. تحقيق: محمد محيي الدين. ج 1. ط1. دون تاريخ. ص 371.
36- مصطفى صادق الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص 144.
37- سليمان عشراتي. الخطاب القرآني (مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي). ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1998م. ص 17.
38- ينظر. عرفة عبد العزيز عبد المعطي. قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية. عالم الكتب. 1985م. ص 72 وما بعدها. وينظر: نور الدين عنتر. القرآن والدراسات الأدبية. منشورات جامعة حلب. دون تاريخ. ص 155 وما بعدها.
39- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم. تأويل مشكل القرآن. تحقيق: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية. دون تاريخ. ص 07.
40- المصدر نفسه. ص 16.
41- عبد الفتاح لاشين. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية. دار الفكر العربي. القاهرة. دون تاريخ. ص 438.
42- العسكري أبو هلال. الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق: علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل. طبع البابي الحلبي. ط 2. 1952. ص 01.
43- المصدر نفسه. ص 03- 04.
44- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. إعجاز القرآن. تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف. مصر. ط3. دون تاريخ. ص 07.
45- المصدر نفسه. ص 13.
46- م نفسه. ص 14.
47- م ن. ص 15.
48- سورة الجن. الآية 1 و 2.
49- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. إعجاز القرآن. ص 36.
50- ينظر. محمد تحريشي. النقد والإعجاز. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2004م. ص 20.
51- ينظر. القاضي عبد الجبار. المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق: أمين الخولي. طبع دار الكتب. 1318هـ. ص 197.
52- ينظر. عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز. تحقيق: محمد رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. 1978م. ص 40 وما بعدها.

* المباهلة هي مفاعلة من الابتهال والتضرع إلى الله بحرارة واجتهاد.